التناص وإشكاليات السرقات الشعرية العربية قديما.

الدكتوره سمية حطري – المركز الجامعي بعين تموشنت – الجزائر

ملخص المقال :

حاول النقد العربي الحديث، اكتشاف علاقة "التناص " بالّسرقات الشعرية " في الدراسات النقدية العربية القديمة، بما أن التناص أخذ و الّسرقات كذلك. إلا أن التناص أخذ مشروع، أّما السرقات الشعرية بعضها مباح و البعض الآخر مذموم .

شدة الاهتمام بالسرقات الأدبية جعل النقاد يعدوها جزءا من دراسة البلاغة العربية حيث " ألحقوها بعلومها الثلاثة ، وجعلوها خاتمة لمباحث الفن الثالث(فن البديع) واهتمت كتبهم بهذا الموضوع (السرقات الشعرية).لأنه كان محل اهتمام النقاد والبلاغيين العرب القدامى،لأنه متصل أشد اتصال بالشعر والشعراء.

كما حاول نقادنا المحدثين البحث في هذه الظاهرة حتى أنهم أطلقوا عليها مختلف التسميات وكلها تشير إلى أن (التداخل النصي) واستحضار النصوص السابقة في أشعارهم هو :سرقة، وسرقا، وانتهابا وإغارة وغصبا، ومسخا ونسخا ، وتلفيقا .ومنهم من يتلطف في تلك الألقاب تحرزا من الخطأ ، فيسميها اقتباسا ، وأخذا ، وتضمينا ، واستشهاد ، وعقدا ، وحلا ، وتلميحا .

فمثلما احتار النقاد المحدثون في البحث عن تعريف جامع مانع " للتناص " أشار النقاد العرب القدامى إلى أن"السرقات الشعرية"باب واسع جدا .لكننا إذا تمعنا في قراءة نصوصهم النقدية وجدنا أن تداخل النصوص وتفاعلها وتحاورها تناصا أكيدا والمصطلحات التي جاؤوا بها لخير دليل على ذلك، فالنقل والقلب والزيادة والتوارد، كلها آليات للتناص في النقد الحديث.وبعدما كان الأخذ من السابق يعد سرقة وعيبا لأنه كان مباشرا صريحا في اللفظ والمعنى،كان لابد من بعض التغييروالزيادة أو النقص، أو المعارضة والنقيضة، أو الإشارة بالتنصيص كالتضمين.

Search summary

Modern Arab criticism, tried to discover the relationship of "Intertextuality" poetic "in thefts by critical studies of ancient Arabic, as Intertextuality taking and theft as well. However, Intertextuality, and the project took the robberies noodles each goes and others vilified.

TuckHis interest in plagiarism to make critics they prepare her part of the study of rhetoric as "unmindful in Arabic Sciences and made her conclusion of investigation art III (the delightful art) and books on this subject (thefts capillary). it was of interest to critics and Arab veterans of the rhetorical, because it is connected more to poetry and poets.

Also try our critics ' research on this phenomenon, so they called it the various labels and all that (text interface) and the earlier texts on notice: to steal, stole, and looting and raiding

and forced, and pushing a copies, and fabricated, and whom the titles made very kindly of error, called a quote, and taking, and entrenched, and martyrdom, and contracts, and a solution, and a hint.

Just as bewildered modern critics find exhaustive definition "lltnas" ancient Arab critics noted that "robberies noodles" is a very broad section. but if we examine reading their cash, the overlapping of texts and their interaction and engagement firm tenasa and terms that came to speak on it, and the heart and increases and the successive arrival, all mechanisms of lltnas in modern criticism. and after the introduction of the former counts of theft and a fault because it was explicit in the term and immediate sense, it has to be some change and increase or decrease, or opposition And the antithesis, or quotation reference as embedding.

حاول النقد العربي الحديث، اكتشاف علاقة "التناص " بالّسرقات الشعرية " في الدراسات النقدية العربية القديمة، بما أن التناص أخذ و الّسرقات كذلك. إلا أن التناص أخذ مشروع، أّما السرقات الشعرية بعضها مباح و البعض الآخر مذموم .

أسماء كثيرة ذكرها تاريخ النقد العربي القديم، اهتمت بباب السرقات الشعرية، منهم: **ابن السلام الجمجي** في كتابه طبقات الشعراء ، **ابن قتيبة** في كتابه " الشعر والشعراء " ، **أبو هلال العسكري** في كتابه " الصناعتين " ، **الجاحظ** في كتابه " الحيوان " ، **ابن طباطبا** في كتابه " عيار الشعر "، **الآمدي**في كتابه " الموازنة " ،

الجرجاني في كتابه " أسرار البلاغة "، **ابن رشيق** في كتابه " العمدة " ، **القاضي الجرجاني** في كتابه " الوساطة "إلى جانب عدد آخر من النقاد والبلاغين.

يشير **بدوي طبانة** أن شدة الاهتمام بالسرقات الأدبية جعل النقاد يعدوها جزءا من دراسة البلاغة العربية حيث " ألحقوها بعلومها الثلاثة ، وجعلوها خاتمة لمباحث الفن الثالث (فن البديع) واهتمت كتبهم بهذا الموضوع (السرقات الشعرية) على الرغم من اعترافهم أن معنى السرقات لا يرجع إلى ما تشترك فيه الفنون الثلاثة حتى يكون البحث في (السرقات) خاتمة لمجموع في كتبهم عن مباحث البلاغة"[1].فموضوع السرقات الشعرية كان محل اهتمام النقاد والبلاغيين العرب القدامى،لأنه متصل أشد اتصال بالشعر والشعراء.

كما حاول نقادنا المحدثين البحث في هذه الظاهرة حتى أنهم أطلقوا عليها مختلف التسميات وكلها تشير إلى أن (التداخل النصي) واستحضار النصوص السابقة في أشعارهم هو :سرقة، وسرقا، وانتهابا وإغارة وغصبا، ومسخا ونسخا ، وتلفيقا كما استهدفت السرقة عند نقادنا الإساءة و الحط من شأن صاحبها، لكنهم بدراساتهم المكثفة ميزوا بين هاته المستويات المختلفة في التداخل النصي [2].

منهم من يتلطف في تلك الألقاب تحرزا من الخطأ ، فيسميها اقتباسا ، وأخذا ، وتضمينا ، واستشهاد ، وعقدا ، وحلا ، وتلميحا وغير ذلك من الأسماء المهذبة[3].فمثلما

1- بدوي طبانة،السرقات الأدبية ، دار الثقافة ، بيروت لبنان ، طابعة مثقفة1986 ،ص05

2- أنظر المرجع السابق ، ص 163 .

3- أنظر المرجع السابق ، ص34.

احتار النقاد المحدثون في البحث عن تعريف جامع مانع " للتناص " أشار النقاد العرب القدامى إلى أن السرقات الشعرية"باب واسع جدا ، لم يقدر أحد أن يدعى السلامة فيه"[4].

لكننا إذا تمعنا في قراءة نصوصهم النقدية وجدناأن تداخل النصوص وتفاعلها وتحاورها تناصا أكيدا والمصطلحات التي جاؤوا بها لخير دليل على ذلك، فالنقل والقلب والزيادة والتوارد، كلها آليات للتناص في النقد الحديث" والسّرق – أيدك الله – داء قديم – وعيب عتيق ، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ، ويستمد من قريحته ، ويعتمد على معناه ولفظه ، وكان أكثره ظاهرا كالتوارد الذي صدرنا بذكره الكلام ، وإن تجاوز ذلك قليلا في الغموض لم يكن فيه خير اختلاف الألفاظ ، ثم تسبب المحدثون إلى إخفائه بالنقل و القلب ، وتغيير المنهاج والترتيب ، وتكلفوا ، جبر فيه من النقيصة بالزيادة والتأكيد و التعريض في حال و التصريح في أخرى و الاحتجاج والتعليل ، فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور ما لا يقصر معه عن افتراضه وإبداعه مثله"[5]. بعدما كان الأخذ من السابق يعد سرقة وعيبا لأنه كان مباشرا صريحا في اللفظ والمعنى،كان لابد من بعض التغييروالزيادة أو النقص، أو المعارضة والنقيضة، أو الإشارة بالتنصيص كالتضمين.

أ– السّرقات الشعرية:

حتى نحكم بالسرقة أو الابتكار ، لا بد من سعة في المعرفة و الاطلاع ، الواسع للتراث الأدبي ، عبر العصور الطوال، وحفظ الكثير منه حتى يسهل ربط المتقدم بالمتأخر، ويعرف السابق من اللاحق [6].لأن السرقة تعود للنصوص السابقة سواء من زمن متقدم أو

4- أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني،العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده تحقيق عبد الحميد هنداوي 1 – 2 ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 2004، ص 282 .

5- القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني،الوساطة بين المتنبين وخصومه ، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل ، إبراهيم علي محمد ، يمباوي ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا بيروت، ص 214

6- بدوي طبانة،أنظر السرقات الأدبية ، (دراسة في انتحار الأعمال الأدبية وتقليدها ، دار الثقافة بيروت ، لبنان، طبعة مزيدة منفحة 1986 ، ص 4 .

متأخر،لذا لايمكننا الحكم بالسرقة إن لم نكن على دراية بالنصوص السابقة ،نحفظ الكثير منها.،بحيث كان يستدعى الحديث عن السرقات اجتهادا مبنيا على الواسع المدى، حتى نحيط ببعض هاته النصوص الكثيرة التي أهمل بعضها[7]؛هذا ما أكده ابن رشيق بالنسبة للشاعر ، فما بالك لناقد"الشاعر مأخوذ بكل علم مطلوب لا تساع الشعر واحتماله كلما حمل من نحو ولغة وفقر وجبر وحساب" [8].

كما أن كل شاعر، محتاج أن يقرأ لأسلافه، والحفظ لأشعارهم حتى ترسخ بذاكرته، هذا ما وضحه ابن خلدون في كتابه " المقدمة ":"اعلم أن لعمل الشعر وأحكام صناعته شروطا أولها الحفظ من جنسه أي من حسن شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ويتغير المحفوظ من الحر، ومن كان خاليا من المحفوظ فنظمه قاصر رديء فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر.واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظا"[9]؛ الشاعر الحاذق لا يكتفي بالحفظ، وإنما ينساه حتى ينقش في ذاكرته. ويبقى عالقا فيحصل تفاعلا وتداخلا نصيا واضحا عند ممارسة النظم ، لأن الأساس الموجود هو الذي يساعد على تكوين تجربة جديدة ناجحة .

وربما يقال أن من شرطه" نسيان ذلك المحفوظ لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة، إذ هي صادقة عند استعمالها بعينها ،فإذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتقش الأسلوب فيها كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة.."[10]؛وقد شبه شعراؤنا، ونقادنا القدامى لهذا التداخل النصي واعترفوا به منذ العصر الجاهلي ؛فعنترة ابن شداد ، قد

7- بدوي طبانة، السرقات الأدبية، ص 9 .

8- ابن رشيق،العمدة في نقد الشعر ونقده ، ص 171 .

9- عبد الرحمن ابن خلدون،المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 476 .

10- المرجع السابق، ص176.

لاحظ أن هناك شعراء سبقوا إلى نظم المقدمات الطللية ، وأن جل شعراء هذه الفترة يسيرون نفس الخطوات في نظم قصائدهم ، فتتفاعل وتتداخل نصوصهم فيما بينها .

هَلْ غَادَرَ الشّعَراءُ مِنْ مُتَرَدّمِ.... أَمْ عَرفت الدّارَ بَعْدَ تَوَهّمِ[11]

ويبين هذا كعب بن زهير وكأن تلك الأشعار يستثيرها ويتبادلها الشعراء أو يعيدونها عن طريق التكرار .

مَا أَرَانَا نَقُولُ إلاّ مُعَارَا .... أَوْ مُعَادا مِنْ لَفْظِنَا مَكُرُورَا[12]

ويؤكد هذا التوارد **أبو عمرو بن العلاء** لما سئل أرأيت الشاعرين يتفقان ويتواردان في اللفظ، لم يلق واحد منهما صاحبه، ولم يسمع بشعره ؟ فأجاب قائلا:" الشعر جادة ، وربما وقع الحافر على الحافر"[13].

ربما لولا هذا التداخل النصي، الذي يرجعنا إلى الأخذ من قول السابقين بتكراره أو استرجاع جزء منه لنفذ حديثنا ، ولم نجد ما نقوله؛فيذكر أبو هلال العسكري في الصناعتين قول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:" لولا أن الكلام يعاد لنفذ"[14]. هذا الرجوع المستمر إلى المخزون الفكري ، من النصوص السابقة يعود إليه أبو تمام في شعره

11- أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني،شرح المعلقات السبع ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت ، لبنان، ص 191.

12- كعب بن زهير ، الديوان ، قراءة وقدم له د.محمد يوسف نجم ،ط 1 ، صادر بيروت 1995 ،ص 31 .

13- الحاتمي أبو علي محمد بن الحسن،الرسالة موضحة، تح محمد يوسف نجم دار بيروت 1965 ، ص 163

14- أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري،كتاب الصناعتين، الكتابة و الشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت، 1998، ص 196 .

يَقُولُ مَنْ تَفْرِغ أَسْمَاءُ لَهْ.... كَمْ تَرَكَ الأَوَّلُ لِلآخِرِ[15].

رجوع الأديب بصفة عامة إلى مختلف العلوم و النهل منها ، أمر طبيعي وضروري هذا ما يؤكده ابن عبد ربه" من أراد أن يكون عالما ، فليطلب علما واحدا ، ومن أراد أن يكون أديبا فليتسع في العلوم"[16].

شرط ألا يكون سرقة ونهبا واختلاسا ، هذا ما نستنتجه من خلال تقسيم النقاد العرب القدامى للسرقات الأدبية إلى مباحة، ومذمومة ، فالأولى تعد تناصا والثانية سرقة، أما المعاني المشتركة العامة فلا تعد سرقة .

1 -السرقة المذمومة (قبح الأخذ) :

أما السرقات المذمومة فهي السرقات المباشرة بالنهب والإغارة، أوبسرقة المعنى واللفظ على السواء دون الزيادة فيها ويعدّ **محمد بن سلام الجمحي** أول من أثار مسألة السرقات عند الجاهلين[17] .

بحيث ذهب إلى القول:" كان قراد بن حنش من شعراء غطفان، وكان جيد الشعر قليله، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذ منه وتدعيه، منهم زهير بن أبي سلمى الذي ادعى هاته الأبيات".

إنّ الّزيّةَ لاَ زِيّةَ مِثْلَهَا...مَا تَبْتَغِي غَطَفَان يَوْمَ أَضَلّتْ .[18]

15- إيليا الحاوي،شرح ديوان أبي تمام، ص 1، دار الكتاب اللبنانيين، 1980 ،ص270 .

16- ابن عبد ربه،العقد الفريد ، ج2 ، المطبعة الشرقية للقاهرة 1916 ، ص 99

17- عبد العزيز عتيق،في النقد الأدبي، ص 312 .

18- ديوان زهير ابن أبي سلمى، دار بيروت للطباعة و النشر، 1979، ص17.

كما أن **ابن قتيبة** في كتابه الشعر و الشعراء يذكر عددا هائلا من الشعراء الذين أخذوا شعر من سبقهم . فهذا بيت امرئ ألقيس :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَى مَطِيِّهِمْ..... يَقُولُونَ لاَ تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ[19]

أخذه طرفة فقال :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَى مَطِيِّهِم ...يَقُولُونَ لاَ تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَلَّدِ[20]

كما فعل شعراء كثيرون ، فأخذا الواحد عن الآخر فبشار بن برد أخذه منه العتابي، وأبو نواس أخذ منه العباس بن الأحنف وعلي بن جبلة أخذ منه مسلم ومحمود الوراق[21] .

ومما جاء في السرقة الواضحة ، أنّ أحمد بن طاهر يقول :"كان الفرزدق يصلت على الشعراء ينتحل أشعارهم، ثم يهجو من ذكر أن شيئا انتحله ، أو دعاه لغيره، وكان يقول :ضوالّ **الغر** أحبّ إليّ من ضوال الإبل ، وخير السرقة ما **لم** تقطع فيه اليد"[22].

وفي العصر العباسي توزعت صور السرقات الشعرية واتسع مجالها، فاهتم بها الشعراء ومنهم بشار بن برد، أبو النواس، أبو تمام ، البحتري، أبو الطيب المتنبي[23].

وكم تعددت الآراء حول قبح الأخذ **فأبو هلال العسكري** جعلها تتجلى في الأشكال التالية:

19- ديوان امرئ القيس،ص27

20-ديوان طرفة بن العبد، دار صادر، بيروت، لبنان، ص19.

21- السابق، ص515،558،597.

22- عبد العزيز عتيق ،في النقد الأدبي ، ص 314

23- المرجع السابق،ص 327 .

– أخذ المعنى بلفظة كلة .

– أخذ المعنى بأكثر لفظة

– أخذ المعنى الموجزة وإطالته من غير زيادة في معناه

– إخراج المعنى في معرض مستهجن ومن الأخذ المستهجن ، أن يأخذ الشاعر المعنى فيفسده أو يعوضه أو يخرجه في معرض قبيح وكسوة مسترذلة[24].

أما **ابن رشيق** فينقل لنا بعض الآراء الخاصة بالسرقة ، ومنها المذمومة وقولهم:" والسرق أيضا إنما هو في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر لا في المعاني المشتركة"[25]. وينقل ما قاله عبد الكريم النهشلي:" واتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجز، وتركه كل معنى سبق إليه جهل ، ولكن المختار له عندي أوسط الحالات"[26] وهنا يقصد عدم المبالغة في السرقة .

وهو يذكر لنا عدد من المصطلحات الخاصة بالسرقات، منها (الاصطراف ، الاجتلاب، الانتحال ، الإغارة ، الغصب ، المرافدة ، الاهتدام ، الإلمام.) ؛نحاول الإشارة إلى ما يناسب قبيح المأخذ .

* **الانتحال**: وهو ادعاء الشاعر لشعر غيره، قّل هذا المدعي أو كثر ، ولا يقال" منتحل" إلا لمن ادعى شعرا لغيره وهو يقول الشعر أما إذاكان لا يقول الشعر فهو " مدّع " *

24- أبو هلال العسكري،الصناعتين ، ج 1 ،ص 229 – 233

25- ابن رشيق ، العمدة ج1،ص 282.

26- ابن رشيق ،العمدة ج1،ص 282 ،

الإغارة: أن يصنع الشاعر بيتا ويخترع معنى مليحا فيتناوله من هو أعظم منه ذكرا وأبعد صوتا ، فيروى له دون قائله .

وقد أورد **ابن رشيق** قولا في تعريف ، الإغارة " وقوم يرون إن الإغارة أخذ اللفظ بأسره و المعنى بأسره و السرق أخذ بعين اللفظ أو بعض المعنى ، كان ذلك لمعاصر أو قديم ."

* **الغصب** :أن يأخذ الشاعر بيتا من شاعر آخرعن طريق التهديد .

***الالتقاط و التلفيق** : وهو أن يؤلف الشاعر بيته من عدة أبيات كان يأخذ أوله من بيت آخر ، وعجزه من بيت ثالث .

الإدّعاء: يقال لغير الشاعر إذا ادعى شعر غيره[27].

أما **ابن الأثير** فيقول عن السرقات "والذي عندي في السرقات أنه متى أورد الآخر شيئا من الألفاظ الأول في معنى من المعاني ولو لفظة واحدة فان ذلك من أدل الدليل على سرقته"[28]؛و يقسم السرقات إلى خمس :

– النسخ – السلخ – المسخ – أخذ المعنى مع الزيادة عليه – عكس المعنى إلى ضده .

أما **فيما** يخص السرقات المذمومة ، فمنها :

27–ابن رشيق،أنظر العمدة ، ص 284 – 285

28– عبد العزيز عتيق،في النقد الأدبي، ص 356 .

* النسخ يأتي على اثنان :

ا) يسمى وقوع الحاضر على الحاضر ، وهو أخذ اللفظ والمعنى برمته من غير زيادة ونقصان كبيتي طرفة وامرئ ألقيس

ب) هو الذي يؤخذ فيه المعنى وأكثر اللفظ ، لقول بعض المتقدمين يمدح مبعدا صاحب الفناء

جـ) قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة ، أو قلب القبيحة إلى حسنة .

1 –**النسخ** : أخذ اللفظ و المعنى برمته من غير زيادة عليه مأخوذا ذلك من نسخ الكتاب

2 –**المسخ** : إحالة المعنى إلى ما دونه ، مأخوذا ذلك من مسخ الآدميين قردة .

ومن السرقات التي يصنفها **القاضي الجرجاني** السرق، والغصب ، والإغارة، والاختلاس، والإلمام ، و الملاحظة و المشترك ، الذي لا يجوز ادعاء السرق فيه ، والمتبدل الذي ليس أحد أولى به ، و المختص الذي حازه المبتدئ فملكه ، وأحياه السابق فاقتطفه فصار المعتدي مختلسا سارقا و المشارك له محتذيا تابعا[29].

وقد تطرق **بدوي طبانة** إلى فعل السرقة الأدبية في المسروق حيث أشار إلى قول الحريري في إحدى مقاماته : "واستراق الشعر عند الشعراء أفضع من سرقة البيضاء والصفراء وغيرتهم على بنات الأفكار ، كغيرتهم على البنات الأبكار "[30]؛فأول من ذم السرقة من الشعراء طرفة بن العبد في قوله :

وَلاَ أَغِيـ ـرُ عَلى الأَشْعارِ أَسْرِقُها..... عَنْها غَنِيـ ـْتُ وَشَرّ النّاسِ مَنْ سَرَقَا[31]

كما أن منهم من يبرئ ذمته من سرقة الشعراء الآخرين ،كما فعل حسان بن ثابت:

لاَ أَسْرِقُ الشّعْرَاءَ مَا نَطَقُوا..... بَلْ لاَ يُوافِقُ شِعْرُهُمْ شِعْرِي[32]

29- عبد العزيز عتيق،في النقد الأدبي ص 357.

30- المرجعالسابق،ص 39.

31- ديوان طرفة ابن العبد، دار صادر، بيروت، ص75

32-ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار بيروت للطباعة والنشر،1987،ص105

السرقات المباحة

إدا قلنا سرقات مباحة، فنحن لا ندعي سرقة ونهبا وإغارة، وادعاء بأن هذه المعاني ملكا خاصا ، وإنما استفادة اللاحق من السابق ، دون أن ندعي ملكيته ، أي الإبداع وإنما يتداخل نصنا مع النصوص السابقة ، فتخرج من جمود المعاني ، وقد نشارك في بناء نص جديد أقوى ، أو مخالفا هذا هو (**التناص**) إذن أو هذا ما يؤكده الجاحظ حيث يقول :" ولا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام ، وفي معنى غريب عجيب ، أو في معنى شريف كريم أو في بديع مخترع ، إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه ، إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره ، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكا فيه"[33].

إشارة واضحة للتناص،حيث يبدو أمر مفروغ منه بالنسبة للجاحظ،فما من شاعرعلى وجه الأرض إلا وعاد في شعره إلى ما ردده من قبله أو من عاصروه،سواء تناصا معنويا أو تناصا معنويا لفظيافيشير الجاحظ إلى أنواع مختلفة من (**التناص**) أو السرقات المباحة كالاقتباس والتضمين، كما يشير إلى ضرورة عودة الشاعر أي كان إلى النصوص السابقة البعيدة واللآحقة ،حتى يستفيد منها ويفيد بدوره.

وهنا تكمل العملية الإنتاجية للنصوص، أي أن نقادنا العرب القدامى قدأدركوا بأن النص دوما في استمرارية ولا مجال للركود والانتقاء ، لكن بدون أن نغير على نصوص سابقينا وندعيها لنا فهذا يعدّ عيب وداء كبير .

33- الجاحظ،الحيوان ، تقديم أحمد فؤاد باشا وعبد الحكيم راضي، مكتبة الأسرة،من عيون التراث، ج3 ،2004، ص 311 .

ويعبر **ابن طباطبا** عن السرقة الحسنة بقوله :" وإذا تناول الشاعر المعاني التي قد سبق إليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعب ،بل فضل لطفه وإحسانه فيه "[34] كقول أبي نواس :

وَإِنْ جَرَت الأَلْفَاظُ مِنّا بِمَدْحَةٍ لِغَيْرِكَ إِنْسَانا فَأَنْتَ الذي نَعْنِي[35]

أخذه من الأحوص حيث يقول :

مَتَى مَا أَقُلْ فِي آخِرِ الدَّهْرِ مَدْحَةً...فَمَا هِيَ إِلاّ لابْنِ لَيْلَى الْمُكَرَّمِ[36]

يتوسع **المرزباني** في توضيح رأيه :" و لا يعذر الشاعر في سرقته حتى يزيد في إضافة المعنى، أو يأتي بأجزل من الكلام الأول، أو يسنح له بذلك معنى يفضح ما تقدمه ولا يفتضح به، وينظر إلى ما قصده نظر مستغن عنه لا فقير إليه"[37]. فرأي **المرزباني** لدليل قاطع على أن ما يأخذ من النصوص لا بد أن يضاف إليه ، أو يعدل فيه ، فتكون صناعته الجديدة أفضل وأوسع وإلا فكان مجرد سرقة . ويأتي **أبو هلال العسكري** ليوضح لنا الأخذ وكيفية استعماله .

– أن يكسو المتأخر معنى المتقدم ألفاظا من عنده

– أن يورده في غير حليته الأولى .

– أن يزيد المعنى في حسن تأليفه ، وجودة تركيبه وكمال حليته .

34– ابن طباطبا،عيار الشعر،ص 76، المتوفى سنة 922 هـ

35– ديوان أبو نواس، شرحه وضبطه وقدم له الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان1987،ص552.

36– ابن طباطبا، عيار الشعر،ص76

37– المرجع السابق، ص 478

– أن ينقل المعنى من غرض لآخر . كأن ينقل المعنى المستعمل في صفة خمر فيجعله في مديح أو في مديح فينقله إلى وصف .

– أن يخفي الشاعر سرقته ويسترها غاية الستر ."فالحاذق يخفي دبيبه إلى المعنى ، بأخذه في سترة فيحكم له بالسبق إليه أكثر من يمر به "[38].

كذلك يوضح **ابن رشيق** أن السرقة أمر قائم أي السرقة المباحة كما يشير هنا"واتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجزا وتركه كل معنى سبق إليه جهل، ولكن المختار له عندي أوسط الحالات "[39]. ومن (السرقات المباحة) يذكر :

الاجتلاب أو الاستلحاق :وهو إعجاب الشاعر ببيت من الشعر وصرفه إلى نفسه على جهة المثال .

المرافدة :وهي أن يعين الشاعر صاحبه بالأبيات يهديها له ، كما قال جرير لذي الرمة ، أنشدني ما قلت لهشام المربي فانشده قصيدته :

بَانَتْ عَيْنَاكَ عَنْ طَلَل بِحُزْوى.... هَجَمَهُ الرِّيحُ وامْتَنَحَ القِطَارُ

فقال : ألا أعينك : قال : بلى بأبي وأمي ، قال : قل له :

يَعُدّ النّاسُونَ إلى تَمِيمٍ.... بُيُوتُ المَجْدِ أَرْبَعَةً كِبَارَا [40]

الاهتدام :هو أن يأخذ الشاعر بعض معنى البيت دون لفظه ويهتدم باقي البيت

38- أبوهلال العسكريالصناعتين،ص 198

39- ابن رشيقالعمدة ، ص 282 .

40- المرجع السابق، ص 284-285.

النظر والملاحظة :حين يتساوى المعنيان دون اللفظ مع خفاء الأخذ أو إذا تضاد المعنيان ودل أحدهما على الأخر .

الإلهام :وهو ضرب من النظر أو هو التغاير بمعنى أن يتضاد المذهبان في المعنى حتى يتقاوما ثم يصحّا جميعا .

المواردة :هي أن يتفق الشاعران في المعنى ويتوردان في اللفظ دون ان يلقي احدهما الآخر أو يسمع شعره[41].

يقسم **ابن الأثير** السرقات إلى النسخ و المسخ، أما المفهوم الأقرب إلى التناص فهو السلخ أي أخذ بعض المعنى وهو يقسمه إلى اثني عشر ضربا منها :

1)- أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ، ولا يكون هو إياه .

2) – أن يؤخذ المعنى فيعكس

3) – أن يؤخذ المعنى فيزاد عليه معنى آخر

4) – أن يؤخذ المعنى فيعكس عبارة أحسن من العبارة الأولى وهذا هو المحمود الذي يخرج به حسنه عن باب السرقة

5) – اتحاد الطريق اختلاف المقصد ، ومثاله أن يسلك الشاعران طريق واحد فتخرج بهما إلى موردين أو روضتين ، وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر .

41- العمدة، ابن رشيق،ج2،ص 285 .

يقسم **ابن وكيع** بدوره السرقات إلى مذمومة ومحمودة ويعيد أوجه التناصات المختلفة أو السرقات المحمودة و التي تتوافق مع رأي ابن الأثير إلا أنه يستبدل" الأخذ"بـ"التوليد" وهنا تتم إنتاجية النصوص واستمرارها من حيث الأخذ والعطاء وهو لا يعدها سرقة مذمومة فهذه وجوه تغفر ذنب سرقته ، وتدل على فطنته[42].

ويضيف **القاضي الجرجاني** مصطلحا آخر هو النقل وقد جعله من أول الأدوات وأدقها التي يستعملها الشاعر في إخفاء أو تداول معانيه الشعرية "السرق – أيدك الله – داء قديم وعيب عتيق ، ومازال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ، ويستمد من قريحته ،ويعتمد على معناه ولفظه، الكلام وإن تجاوز ذلك قليلا في الغموض لم يكن فيه غير اختلاف الألفاظ قريحته، ويعتمد على معناه ولفظه وكان أكثره ظاهرا كالتوارد الذي صدرنا بذكره ثم تسبب المحدثون إلى إخفائه بالنقل والقلب، وتغيير المنهاج والترتيب، وتكلفوا حيز ما فيه من النقيصة بالزيادة والتأكيد والتعريض في حال، والتصريح في أخرى ، والاحتجاج والتعليل فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور مالا يقصر معه عن اختراعه وإبداع مثله"[43].أي نقل المعنى من غرض إلى آخر مع محاولة ستره بكل الوسائل الممكنة وفي ذلك يقول:" إن الشاعر الحاذق إذا عكف المعنى المختلس ، عدل به عن نوعه وصنفه وعن وزنه ونظمه، وعن رويه وقافية، فإذا مر بالغي الطفل وجدهما أجنبيين متباعدين، وإذا تأملهما الفطن الذكي عرف قرابة ما بينهما والصلة التي تجمعهما"[44].

وإلى هذا المفهوم يعود نقادنا من بعده حيث يؤكدونه ويضيفون إليه إن الفكرة إذا أعيدت في لباس جديد قد تكون ربما أجود من الأولى، لأنها تستفيد منها ثم تحويل إنتاجها

42-أبو محمد الحسن بن علي بن وكيع،أنظر المصنف في الشعر وبيان سرقات المتنبي وسائل شعره ، قراءة وقدم له وعلق عليه محمد ، رضوان الداية، دار، ج1 ، دمشق، 1982، ص 9 .

43-القاضي الجرجاني،الوساطة، ص 214 .

44- القاضي الجرجاني،الوساطة ، ص 204

بطريقة أفضل أو مخالفة نوعا ما .هذا ما يؤكده **شوقي ضيف** في قوله:"ومن الواجب أن نعرف دائما أن العبرة في الفن بجمال الإخراج وجمال الأوضاع و الهيئات ، لا بالإبداع المطلق فقد يبعد تحقيقه .... فالابتكار من حيث هو ليس صفة فنية بديعة إنما البدع هو إخراج الفكرة في وضع جديد يلفت الأنظار، بل ربما لم يظهر إبداع الشاعر إلا حينما يتناول خاطرة موروثة أو مطروقة، فإذا هو يستخرج منها، العجب لجودة إخراجها وحسن عرضها"[45].

نوع آخر من السرقات المباحة، يشير إليها **عبد القاهر الجرجاني**، وهي الاحتذاء :"واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتميزه أن يبتدئ الشاعر في معنى له ، غرض أسلوبا — و الأسلوب والضرب من النظم والطريقة فيه — فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجيء به في شعره فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلا على مثال نعل قد قطعها صاحبها فيقال قد احتذى على مثاله"[46].

وذلك كقول الفرزدق :

أنرجو ربيع أن تجيء صغارها.... وقد أعيا ربيعا كبارها [47]

احتذاه البعيث قائلا:

أنرجو كليب أن يجيئ حديثها....بخير وقد أعيا كليبا قديمها

45- شوقي ضيف،الفن ومذاهب في الشعر العربي، دار المعارض بمصر ط10 ، ص 296 – 297 .

46- بدوي طبانة،دراسات في نقد الأدب العربي (من الجاهلية إلى غاية ق3 ، دار الثقافة بيروت لبنان، ص 65.

47- ديوان الفرزدق، تحقيق وشرح كرم البستاني، المجلد الأول، دار صادر بيروت، ص115.

هذا التناص أو (الاحتذاء) وجد متداولا في أشعارنا الحديثة التي عادت للتراث العربي القديم خاصة والحديث أحيانا .بل شدة تأثر شاعر بشاعر آخر قد تؤدي به إلى إعادة البيت أو أكثر من القصيدة ، وبغير مجرد لفظ بسيط منه ، كما فعل طرفة بن العبد مع بيت لامرئ القيس:[48]

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسا وتجهل [49].

اللفظ الذي تغير : (تجمل) أصبح (تجلد) عندما غيره طرفة .

وقوفا بها صحي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد [50]

يوصي **القاضي الجرجاني** بالعودة لأشعار القدماء لما في أشعارهم من روعة اللفظ وألا يجعل همه سرقاتهم أو أخذهم عن بعضهم البعض" إذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب ، وعظم غنائه في تحسين الشعر ، فتصفح شعر جرير،وذي الرمة في القدماء ، والبحتري في المتأخرين ، وتتبع نسيب متيمي العرب ومتغزلي أهل الحجاز ، كمعمر ، وكثير ، وجميل ، ونصيب ، وأضرابهم ، وقسهم بمن هو أجود منهم شعرا ، وأفصح لفظا وسبكا ، ثم انظر واحكم وأنصف ، ودعني من قولك :هل زاد على كذا ، وهل قال إلا ما قاله فلان ، فإن روعة اللفظ تسبق لك إلى الحكم ، وإنما تقضي إلى المعنى عن التفتيش و الكشف"[51].

48- عبد القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز في علم المعاني، صحح أصله الإمام الشيخ محمد عبده ، والأستاذ محمد محمود التركيزي الشنقيطي وقف على تصحيح طبعة وعلق حواشيه الشيخ محمد رشيد رضا، دار المكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، ص 361 .

49- ديوان امرؤ القيس ، ص27.

50- ديوان طرفة ابن العبد، ص19.

51- القاضي الجرجانيالوساطة، ص 32 – 34 .

ابن طباطبا من بين النقاد الذي توسطوا ولطفوا من أحكامهم حول السرقات الشعرية ، فما قبلوها كما هي ، وما رفضوها رفضا باتا " وإذا تناول الشاعر المعاني التي سبق إليها فأبرز ها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يطب بل وجب، له فضل لطفه وإحسانه"[52].

ولذلك يحتاج الشاعر أن يكون دقيقا في اختيار الألفاظ حتى يلبس تلك المعاني لباسا جديدا ، يظن كأنه السابق لهذا الإبداع" ويحتاج من سلك هذا السبيل إلى ألطافه الحيلة — وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها وتلبيسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها ، وينفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق إليها"[53].

توصل **ابن طباطبا** إلى فكرة "**التناص**" منذ العهود الأولى للدراسات النقدية القديمة ، وما نبعده عنده من قول صريح وواضح حول التداخل و التفاعل النصي الذي تتم بين شيء أشكال الثقافات الواسعة والفنون الأدبية المتنوعة " وإن وجد المعنى اللطيف في المنثور من الكلام وفي الخطب والرسائل والأمثال، فتناوله واجعله شعرا، كان أخفى و أحسن ويكون ذلك كالصانع الذي يذيب الذهب والفضة المصوغين فنعيد صياغتها بأحسن مما كان عليه، وكالصباغ الذي يصبغ الثوب ما رأى من الأصباغ الحسنة، فإذا أبرز الصائغ ما صاغه في غير الهيئة التي عهد عليها ، واظهر الصباغ ما صبغه على غير اللون الذي عهد قبل، التبس الأمر في المصوغ وفي المصبوغ على رأيهما، فكذلك المعاني وأخذها واستعمالها في الأشعار على اختلاف فنون القول فيها"[54].

52- أبو الحسن محمد بن احمد بن طباطبا العلوي،عيار الشعر، تحقيق د. عبد العزيز ناصر المانع، دار العلوم 1985 ص 123 .

53- المرجع السابق ، ص 126 .

54- أبو الحسن محمد بن احمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، ص127.

وقد ظل النقاد العرب ومن بينهم **ابن طباطبا** يدعون إلى الإخفاء وهو أول تقنية لتداول المعاني أي إخفاء الشعراء للمقروء الثقافي أو النصوص الغائبة أو ما حفظوه وردوه من أشعار الأوائل ، ثم توظيفها في بناء صورته الجديدة المبتكرة[55].

كذلك يصرح **أبو هلال العسكري** إلى أن الإخفاء يحكم لصاحبه بالسبق"والحاذق يخفي دبيبه إلى المعنى يأخذه في سترة فيحكم له بالسبق إليه أكثر من يمر به "[56].

كثيرا ما تأثر الشعراء والخطباء أهل العلم والأدب ، بالقرآن الكريم والأحاديث الشريفة فأخذوا عنهما الكثير والقليل لتوظيفها في نصوصهم لما لها من علاقة مباشرة و ألفاظ مناسبة للمعاني التي يريدون إيصالها ، هذا النوع من الأخذ المباشر يسمى :اقتباس : وهو أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من آية ن آو آية من كتاب الله تعالى ، والاقتباس جاء عن النقاد القدامى على ثلاث،مقبول ، ومباح ، ومردود .

– المقبول : ما كان في الخطب و الموعظ و العهود و مدح النبي (صلى الله عليه وسلم) ونحو ذلك .

– المباح : ما كان في الغزل و الرسائل و القصص

– أما المردود : فيأتي على ضربين : أحدهما ما نسبه الله تعالى إلى نفسه و الآخر تضمين آية كريمة في معنى هزل[57].

–فقد يكون الاقتباس من الحديث النبوي الشريف، كقول الشاعر :

55– أحمد سليم غانمتداول المعاني بين الشعراء، قراء في النظرية النقدية عند العرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005، الطبعة الأولى،2006 ،ص27.

56– أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري،كتاب ، ص 198 .

57– بدوي طبانة،السرقات الأدبية ، دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها، دار الثقافة، بيروت، لبنان، طبعة مزيدة منفحة، 1986 ، ص 163 .

قُلْ لِـ ي إِنّ َرقِ يبي .....سَّيءَ الخُلُقِ فِ مَارِه

قلت دعني،وجهك الـ..... جنة حُفّت بالمكاره

ولفظ الحديث :" حفت النار بالشهوات ، وحفت الجنة بالمكاره[58].

وقال بعضهم إن الشاعر إذا أخذ من القرآن الكريم أو الحديث الشريف لا يسمى فعله اقتباسا و إنما تضمينا ، أما **الاقتباس** فهو عند المنشئ أو الخطيب[59].

أما **الاقتباس** في النصوص الشعرية العربية فقد نلحظه عن طريق استدعاء (**حكمة**) أو (**مثل**) أو (**قصة**) أو الإشارة إلى (**بيت مشهور**) ، "إذ يقوم المبدع أحيانا ببناء خطابه الشعري – جملة – بالاستناد إلى خطاب آخر من غير دائرته ، أي خطاب النثر ، فعملية بناء هنا شبيهة بعملية العقد "[60].

إذن في الاقتباس يتم تخليص النص الغائب من هوامشه الأصلية ليصبح جزءا أساسيا من البنية الحاضرة أي أنه يتحرك داخل ثنائية (حضور والغياب) على صعيد واحد[61].

أما **التضمين** : فيتم بين نصين شعريين وتتجلى في القصيدة تجليا مباشر ، فيشار إلى النص الغائب، باقتطاع جزء من البيت الشعري، أو البيت بكامله، أو أكثر من بيت[62]. ويشترط في هذا التداخل (القصدية) فيكون النص الغائب نصا مشهورا عند البلغاء

58- المرجع السابق، ص 164 – 165 .

59-بدوي طبانة،السرقات الأدبية، ص 165.

60- محمد عبد المطلب،قضايا الحداثة، ص 156 .

61- محمد عزام، النص الغائب، ص 21 .

62- محمد عزام، النص الغائب، ص21

معروفا صاحبه لدى المتلقي كي لا يقع التباس مع النص الحاضر، وإلا فيفصح الشاعر في ثنايا شعره عن قائله الأصلي أو وضع إشارة تنبه إليه [63]، كقول الشاعر :

"إِذَا دَلّهُ عَلى الحَزْمِ لَهُ يَقُلْ.....أَغَدا عُودُهاإِنْ لَمْ تُعْقْهُ العَوائِقُ"

البعض فرق بين الاقتباس و التضمين، والبعض الآخر جعلهما واحدا.

دراسة السرقات الشعرية عند نقادنا القدامى، تؤكد على وجود جذور التناص في الشعر العربي منذ القدم. وإن بدأ بين الشعراء،فتطور مفهومه مع الزمن إلى تداخل النصوص بين الشعر ومختلف المناهل من نثر ومثل وحكمة واقتباس من القرآن الكريم،وقصص أو شخصيات أسطورية،فكثير من المفاهيم التي جاء بها نقادنا توحي بذلك،منها ما قاله الجاحظ:"نظرنا في الشعر القديم والمحدث،فوجدنا المعاني تقلب ويؤخذ بعضها من بعض". [64]

هنا قول الجاحظ صريح بأن التناص موجود في الشعر في زمنه ومن قبله.وهو لم يشر إلى السرقة المباشرة وإنما الأخذ والقلب.كما أن جل النقاد القدامى يوضحون بأن هنالك أنواع للسرقات ،بعضها مذموم مثلما أشار إليه كل من أبو الهلال العسكري وابن رشيق القيرواني ...وبعضها محمود،وهذا ما يعد تناصا و هذا ما يوضحه المرزباني وابن طباطبا وابن رشيق كالاجتلاب والاهتدام والإخفاء والنقل والقلب. لأن التناص مشروع،في حالة الرجوع إلى مختلف الثقافات بتذكرها واستحضارها لا باختلاسها ونهبها والإغارة عليها. أما الاقتباس والتضمين والأخذ فهي أكثر التناصات الموجودة في الشعر العربي القديم والحديث.

63- بدوي طبانة، السرقات الأدبية، ص 163.

64- أحمد سليم غانم، تداول المعاني بين الشعراء، ص13.